بفضل الإسلام

اكتسبت العربية مرونة خلاقة وأصبحت لغة ثقافة وحضارة

للأستاذ محمد زنيبر

استاذ في كلية الآداب (الرباط)

ان المسألة التي تطرحونها فى استفتائكم واضحة سهلة ، لا تضع اي مشكلة فى الجواب . ولست اعتقد أن هنالك من يجادل فى كون اللغة العربية مدينة بانتشارها فى العالم وبالاهمية التي ادركتها فى التاريخ للقرءان . وبلغ من اهمية اللغة العربية فى أول الاسلام ان عددا من اللغات الحضارية بالشرق والغرب انمحى امامها ، اما بصورة نهائية او لمدة طويلة . فقد انقرضت اللغة اللاتينية بافريقيا الشمالية . وهنالك لغات اخرى مثل السريانية والآرامية والنبطية والقبطية انزوت فى بعض الاوساط الخاصة الضيقة ولم يعد لها ذكر . اما الفارسية ، فقد تخلت لعدة قرون عن دعواها كلغة ثقافية ، وغدا العلماء والمثقفون والمفكرون الفارسيون لا يستغنون عن العربية كلما ارادوا ان يكتبوا او يؤلفوا أو ينظموا الشعر ، وكان اعظم شرف وفخر لهؤلاء الفارسيين هو أن يبرهنوا عن تفوقهم فى الكتابة باللغة العربية ، وكانوا بالفعل اول من خدم هذه اللغة . ولنذكر هنا ، على سبيل المثال ، المكانة التي ادركها بعض الفارسيين ككتاب فى العربية مثل الزمخشري ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وابى بكر الخوارزمي، والجرجاني . ولم تسترجع اللغة الفارسية مكانتها الا رويدا رويدا تحت عامل اليقظة القومية ، من جهة ، وانحلال الوحدة الاسلامية التي كانت تتمثل فى دولة الخلافة العباسية ، من جهة اخرى . على ان اللغة العربية طبعت اللغة الفارسية الحديثة بطابع نهائي .

فهل ادركت العربية هذا الانتشار ، وهاته الاهمية لمزايا لغوية تختص بها ولا توجد فى لغة اخرى؟ هذا ليس بصحيح . فاللغة العربية اذا نظرنا اليها من وجهة علمية بحت لا تتفوق على اللغات الاخرى فى شيء، بل اننا اذا نظرنا الى وضعها فى اول البعثة الاسلامية ، نجدها متأخرة من حيث المرونة والملكة التعبيرية بالنسبة للغات حضارية معاصرة كاليونانية واللاتينية. وهذا امر طبيعي ومعقول لانها كانت لغة بدو يعيشون فى الصحراء وينتمون الى مجتمع بسيط التركيب لا تتجاوز حاجياته الاوليات الاساسية فى العيش . نعم **اكتسبت اللغة العربية مرونة فيما بعد واصبحت لغة ثقافة وحضارة** ؛ ولكن ذلك تطلب زمنا ليس بالقليل .

والذي بوا اللغة العربية المكانة الممتازة هو القرءان ، هو الدين . فقد اصبحت العربية مقدسة لانها لغة الكتاب المقدس . واصبح واجبا على المسلم أن يعرفها ولو بصورة مجملة ليستطيع اداء بعض الشعائر الدينية . وهكذا اقبل عدد من ابناء الشعوب المفتوحة على اللغة العربية . وما اهل القرن الهجري الثاني حتى اصبحت لغة ثقافة وكتابة . فالعلماء والمحدثون والقصاص يقرئون بها الجمهور فى مساجد المدينة والبصرة والكوفة . والكتاب من امثال عبد الحميد وابن المقفع يوسعون نفسها ويلينون قناتها لتستجيب لضرورات الحضارة الاسلامية الناشئة . وقطعت العربية اشواطا كبيرة وادركت درجة التفوق، فاكتسبت الى جانب مزاياها كلغة دينية مقدسة ، مزايا اخرى ترجع الى ذاتيتها ودورها الاساسي كلغة امبراطورية عظيمة تلج الحضارة من كل الابواب ، وهكذا فرضت وجودها فى العصر الوسيط ، ولم يقتصر نفوذها على المسلمين وحدهم ، بل انها انتزعت اعجاب طوائف غير مسلمة ، كما نرى فى مثال

المسيحيين بالاندلس الذين كانوا يثيرون سخط القساوسة لاقبالهم الشديد على اللغة العربية .

ومع ذلك ، **فالفضل فى انتشارها بآسيا وافريقيا يرجع قبل كل شيء الى القرءان** . فنحن نعرف من التجربة التاريخية التي عاشتها الانسانية الى اليوم انه لا يكفي ان تكون اللغة جميلة متطورة مرنة راقية لتعرف الانتشار . فهذه اللغة اليونانية وهي ما هي فى تاريخ العلم والحضارة لم تتجاوز حدود بلادها ، اللهم الا ما كان من الاوساط العلمية التي ظلت تهتم بها في اروبا لانها مصدر غنى من مصادر الاشتقاق والنحت فى ميدان ابتكار المصطلحات العلمية الجديدة . وهذه اللغة الفرنسية التي رغم تفوقها وجمالها ومزاياها لم تحظ بالذيوع الذي حظيت به اللغة الاسبانية ، مثلا . وكل هذا يدل على انه ليست هنالك علاقة بين انتشار اللغة ودرجة تفوقها ورقيها . بل هنالك عوامل تاريخية عاطفية هي التي ميزت بعض اللغات فى العالم وجعلتها محظوظة نوعا ما .

وفى مثال اللغة العربية لا شك ان هذا العامل التاريخي العاطفي هو القرءان والدين . هذا فيما يخص الماضي ، طبعا . اما فى الزمن الراهن ، فقد انضاف الى **العامل الديني** عامل آخر هو **العامل القومي** . فقد دخلت الشعوب العربية منذ القرن التاسع عشر فى عهد جديد من تاريخها فاستيقظت من سبات القرون الوسطى وتحررت من السيطرة الاجنبية ، سيطرة الاتراك العثمانيين الذين كانوا يستعبدونها باسم الدين والاخاء الاسلامي ، وسيطرة الغزاة الاوربيين الذين جاءوا فى حملاتهم المتوالية لاستعمار العالم . وشعرت الشعوب العربية المختلفة وهي فى غمرة المعركة التحريرية ان هنالك روابط قوية تجمع فيما بينها برباط وثيق . واهمها هي رابطة الثقافة والفكر التي تتمثل فى اللغة العربية التي عاصرت الاجيال والقرون وعبرت الاحقاب والعصور وهي صامدة تمثل استمرار نوع من الثقافة والفكر والحضارة . وقد اصبحت اليوم من اقدم اللغات واعرقها . وكل هذه اسباب وجيهة جعلت الشعوب العربية الناهضة اليوم تتشبث بهذه الشجرة العميقة الجذور ، الباسقة الفروع التي تحدت الزمن بشبابها المتجدد . وهذا العامل القومي هو الذي جعل اخواننا العرب المسيحيين فى البلاد العربية لا يقلون اسهاما عن العرب المسلمين فى خدمة لغتهم ونشرها .